ريبورطاج وصور
من مبعوثي «نيشان» الخاصين إلى تيندوف
أحمد بن شمسي
المهدي السكوري العلوي

انفراد صحفي!

لأول مرة منذ اندلاع النزاع المسلح عام 1975، تقوم صحيفة مغربية بزيارة مخيمات لحمادة، مقر جبهة البوليزاريو. «نيشان» شافت كلّشي بعينيها، الجيش والمؤسسات السياسية وظروف عيش السكان... إليكم وقائع الزيارة، لقطة بلقطة.

«نيشان» زارت مخيمات البوليزاريو
رحلة إلى تيندوف

الثلاثاء 10 يونيو
عشاء مع السفير

من الرباط تبدو الجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية كيانا «وهميا». لكن من العاصمة الجزائرية تبدو الأشياء مختلفة تماما. فإذا كانت «الدولة الصحراوية» تفتقر إلى أرض، ذلك هو الشيء الوحيد الذي ينقصها. فهي تتوفر على دستور وحكومة وبرلمان... وعلى بعثة دبلوماسية في ڤيلا فاخرة بقلب العاصمة الجزائر، حيث نوجد الآن في السابعة والنصف ليلا. وذلك بناء على رغبة ابراهيم غالي وزير الدفاع السابق والسفير الحالي للجمهورية الصحراوية في الجزائر، الذي حرص على دعوتنا الى العشاء قبل أن نطير في اتجاه تيندوف.

بعد السلام والتحايا، بادرنا السفير ببراءة مزيفة: «فين وصلات الوضعية فسيدي إفني؟ الجزيرة أعلنت بأن الاضطرابات أوقعت عشرة قتلى». سرعان ما انتابه الشك بعد تكذيبنا (حسب علمنا لم تسفر أحداث سيدي إفني سوى عن سقوط جرحى). هل نكون من أولئك الذين يبثون «الدعاية المخزنية» بشكل تلقائي ومبدئي؟ وضع السفير نواياه حين أضاف «من الصعب عليكم أنتم الصحافيون المغاربة تغطية واقع الصحراء بموضوعية». خرج ليها ديريكت! حتى قبل أن نصل إلى تيندوف التصقت بجلدنا تهمة التحيز الجاهزة. جلسنا إلى المائدة وكان عشاؤنا عتروس مشوي وأطباق متنوعة من اللحم والخضرة. كرم الضيافة الصحراوية الأسطوري كان واضحا، فقد كنا خمسة حول

> كنا خمسة حول المائدة فيما الأكل الوفير يكفي عشرين شخصا على الأقل. هذا هو كرم الضيافة الصحراوي الأسطوري...

أول ما سأل عنه السفير ابراهيم غالي هو أحداث سيدي إيفني.

من العاصمة الجزائرية لا تبدو «الجمهورية الصحراوية» كيانا «وهميا».

السيد السفير حطّ لينا عتروس مشوي باش نتعشاو. الله يكثّر خيرو...

المائدة فيما الأكل الوفير يكفي عشرين شخصا على الأقل. تحدثنا عن مفاوضات مانهاست، حيث كان السفير ابراهيم غالي حاضرا ضمن وفد البوليزاريو. سألنا عن أخبار الطيب الفاسي الفهري، وزير الخارجية وشكيب بن موسى وزير الداخلية، عضوي الوفد المغربي في مانهاست، الضاحية النيويوركية التي احتضنت أربع جولات من المفاوضات بين المغرب والبوليزاريو بدون نتيجة. «بسبب المغرب»، أكد السفير كما لو أن الأمر يتعلق بحقيقة بديهية. ثم أضاف: «ما لم أفهمه حتى الآن في هذا النزاع هو صمت الشعب المغربي. لماذا يسكت على كل هذا الظلم؟». كيف نجيب أمام اعتقاد بهذه الدرجة من الرسوخ العميق؟ شكرنا السفير على العتروس ولحمه اللذيذ.

كان علينا الانصراف، لأن الطائرة التي ستقلنا إلى تيندوف ستنطلق عند الساعة العاشرة وخمسة وأربعين دقيقة. وسيكون ابراهيم كردلاس، أحد مستشاري السفير، هو مرافقنا الرسمي في رحلتنا التيندوفية. عندما وصلنا إلى المطار طلب منا جوازات السفر من أجل إجراءات الإقلاع. من باب الفضول، طلبنا منه بدورنا أن يرينا جواز سفره. كان جوازا دبلوماسيا أحمر اللون ويحمل شعار الجمهورية الصحراوية. أرانا أيضا رخصة السياقة، وهي نسخة طبق الأصل لرخصة السياقة المغربية الوردية من ثلاث قطع. قد تكون الجمهورية الصحراوية «وهمية»، لكن يبدو أنها محكمة التنظيم... بعد خضوعنا لإجراءات تفتيش دقيقة، طالت حتى أجسامنا، ركبنا طائرة مدنية ذات كراسي «مفرشخة» (والله!). حظنا كبير لأن الطائرة ستتجه مباشرة إلى تيندوف بدل الوقوف كما العادة في بشار.

تيندوف ليست هي تيندوف

وصلنا عند الساعة الثانية صباحا. المفاجأة الأولى هي... الغياب التام للجمهورية الصحراوية هناك! فتيندوف ومطارها المكون من بناية متهالكة، يجعلانك تعي بأنك في الجزائر مائة في المائة. والبداية مع الشرطة وقائدها المحلي الذي ما إن علم بأننا مغاربة حتى أطلق العنان لمقارنة حماسية بين المنتخبين الوطنيين لكرة القدم الجزائري والمغربي، مؤكدا لنا بأنه من المعجبين بمروان الشماخ. بعدما أخذه ابراهيم جانبا وأسر له بأننا صحافيان، وأننا نعتزم زيارة مخيمات البوليزاريو، خاطبنا بشفقة صادقة: «سيكون من الصعب عليكما كتابة حقيقة استقلال الشعب الصحراوي، ياك؟». الله يا ودّي...

عند مخرج المطار كانت في انتظارنا سيارة كاط كاط بيضاء بدون لوحة ترقيم. المنطقة المعطاة للصحراويين تبدأ بعد 30 كيلمترا ونقطتا تفتيش للشرطة الجزائرية. ومن هنا لهناك ممنوع

التصوير، لأن المنطقة الحدودية مع المغرب مصنفة كمنطقة عسكرية، وهي تضم لوحدها حسب ما قيل لنا ثلاثة أرباع الجيش الجزائري. حنا فأمان الحمد لله...

سارت بنا الكاط كاط على طريق كودروني لمدة ربع ساعة، قبل أن ندخل في پيست بلا لوحات إشارة ولا إنارة، يلفنا الظلام الدامس. ثم بعد ربع ساعة أخرى من الطريق وصلنا إلى «مزرعة الضيافة» التي ستكون مقر إقامتنا لمدة أربعة أيام. نحن في غاية الإرهاق. ياالله ننعسو وغدًا يحن سيدي ربّي...

الأربعاء 11 يونيو
فيرمة ودجاج

إنها العاشرة صباحا. في انتظار تحديد برنامج الزيارة، الذي ناقشناه مع «المسؤول عن البروتوكول في الرئاسة الصحراوية»، قمنا بتفقد مقر إقامتنا. وبالفعل فإن «المزرعة»

> تيندوف منطقة عسكرية، وهي تضم لوحدها حسب ما قيل لنا ثلاثة أرباع الجيش الجزائري. حنا فأمان الحمد لله...

«مزرعة الضيافة» عبارة عن واحة حقيقية في قلب الصحراء.

من منتوج هذه الوحدة توزع أربعة بيضات في الشهر لكل مواطن في المخيمات.

طول رحلتنا تجولنا عبر المخيمات على متن هذه السيارة... التي لا تحمل لوحة ترقيم.

تستحق اسمها، فهي عبارة عن واحة حقيقية في قلب الصحراء. هنا يتم زرع كل أنواع الفواكه والخضراوات التي توزع على ساكنة المخيمات. هنا وهناك تقبع شاحنات تحمل شعارات العديد من منظمات الإغاثة الإنسانية الأوربية. غير أن أهم ما في المزرعة هو وحدة إنتاج البيض الممولة من طرف تعاونية إسبانية والمقامة في هنكار فسيح ومُهَوّى. هناك 30 ألف دجاجة تنتج 900 ألف بيضة شهريا. «من أجل تغطية مصاريفنا، نحن مُجبَرون على بيع 70 في المائة من إنتاجنا في السوق الجزائرية، والباقي يوزع مجانا على الشعب الصحراوي بمعدل 4 بيضات لكل مواطن»، شرح لنا المسؤول عن المزرعة: رجل في الثانية والأربعين من العمر ينحدر من مدينة العيون ودرس تخصص تدبير المقاولات في جامعة القاضي عياض بمراكش، قبل أن يلتحق بمخيمات تيندوف عام 1991. أكد لنا بأنه لم يندم أبدا على قراره: «لقد كنت دائما متيقنا بأنه بعد إتمام دراستي سآتي هنا للمساهمة في معركة التحرير إلى جانب إخواني».

التحق بنا ابراهيم ليعطينا تفاصيل البرنامج الذي ستكون أولى محطاته زيارة لمقر البرلمان الصحراوي. ركبنا الكاط كاط متبوعين بأخرى، خَتّها نّيت. خلال كل رحلتنا سنتحرك دائما على شكل قافلة من جوج كاط كاطات، والتفسير هو «باش ما نحصلوش يلا وقعات شي وحدة فيهم أومپان، الصحراء هادي...». قطعنا أكثر من نصف ساعة في قلب الصحراء الفسيحة، ومن حين لآخر تحت الشمس اللاهبة نمر بمحاذاة بقايا شاحنات تعطلت وبقيت في مكانها إلى الأبد. كلما غصنا في الصحراء نصادف عربات الدجيب أو الپيك آپ ذات اللون الرملي تقلّ رجالا ملثمين اتقاءً للشمس الحارقة. أفغانستان و صافي! سائق الكاط كاط، الذي وضع علما صحراويا في لوحة القيادة لا يبدو أنه يتبع أية وجهة مسطرة؛ «حنا صحراوة ما محتاجينش لجي پي إس ولا أي نظام قيادة إلكتروني»، قال لنا ابراهيم بافتخار، ثم أضاف: «في النهار نهتدي إلى الطريق بفضل ألوان الرمال وأشكال الكثبان وفي الليل تساعدنا النجوم». تبارك الله و الصلاة على النبي!

برلمان ديماتيت

مقر البرلمان الصحراوي بناية معزولة في قلب الخلاء. عبرنا ساحة صغيرة مسيجة بجدران متآكلة، قبل أن ندخل إلى قاعة تشبه قسما فشي إعدادية فالعروبية جاو وحطو فيها لبيروات ولكراسي. الطولا ديال السقف من نوع ديماتيت، طاولات خشبية متراصة على شكل صفوف وكراسي من النوع العادي، بعضها مازال مغلفا بالميكا ديال الحانوت. تحتضن القاعة بشكل متناثر حوالي أربعين شخصا أكثر من ربعهم نساء، بالإضافة -يا للغرابة- إلى طفل لا يتجاوز عمره عشر سنوات. في مواجهة الحضور، حائط مصبوغ بالأخضر مغطى بأعلام الجمهورية الصحراوية وفوقها كتِب بالعربية والإسبانية بخط كبير: «المجلس الوطني الصحراوي». على الخشبة اصطفت مجموعة من الرجال

مقر البرلمان الصحراوي بناية معزولة في قلب الخلاء.

أحد النواب يغط في نوم عميق... هذه على الأقل نقطة تشابه مع برلماني الرباط.

مدخل «المجلس الوطني الصحراوي».

بالدراعيات مع محفوظ علي بيبا رئيس المجلس، الذي تناول الميكروفون... للترحيب بـ«وفد من الشعب المغربي الشقيق» (هوما حنا زعما)!! قبل أن نتمكن من الاحتجاج، أضاف: «ليس لدينا أي مشكل مع جيراننا المغاربة، فهم شعب شقيق. مشكلتنا مع النظام المغربي». هاد الجملة غادي نسمعوها ألف مرة على الأقل فهاد الرحلة...

جدول أعمال اليوم في البرلمان: انتخاب «ديمقراطي وشعبي» لعضوين من المجلس الصحراوي الأعلى للقضاء «حسب مقتضيات الفصل 134 من الدستور». بدأت إجراءات الاقتراع تحت النظرات غير المبالية لغالبية النواب. أحدهم كان يغط في نوم عميق ورأسه مدلى إلى الوراء (أنظر الصورة أعلاه). إيوا على الأقل هذا قاسم مشترك مع برلمان الرباط...

بعد انتهاء الجلسة دعانا رئيس المجلس إلى صالة استقبال مجاورة رفقة مجموعة من النواب. أحد هؤلاء فسر لنا بأنه «منتخب من القطاع العسكري» وأن راتبه الشهري يبلغ 4000 دينار جزائري، أي ما يعادل 400 درهم مغربية. سألنا: «كم يبلغ راتب البرلمانيين المغاربة؟». حشمنا نجاوبوه، أما هو فقد غالب ضحكته.

في صالة الاستقبال لاحظنا ملصقات لمتظاهرين في مدينة العيون وصورة كبيرة لعلي سالم التامك. هنا يُعتبر هذا الناشط الانفصالي بطلا وطنيا. كونه مواطن مغربي يدرس الصحافة في الدار البيضاء ويحمل پاسپورا مغربيا لا يبدو أنه يزعج أحدا هنا. تم توزيع كؤوس الشاي على الحاضرين، وشرع بعض النواب في طرح الأسئلة علينا: «إيوا دابا كالك الهمة ديمقراطي وبغا يدير حزب؟». باينة هادو ما كيفلتو والو فالسياسة المغربية... انتقل الكلام إلى مفاوضات مانهاست، التي شارك فيها محفوظ علي بيبا. علاش هو والأعضاء الآخرين ديال الوفد الصحراوي ما بغاوش يسلّمو على خلي هنا ولد الرشيد، رئيس المجلس الملكي الاستشاري للشؤون الصحراوية، والمدافع عن مغربية الصحراء؟ سؤالنا طلع ليهم الدم مزيان. «حضور صحراويين ضمن وفد المفاوضين المغاربة كان في حد ذاته استفزازا لنا»، ثار في وجهنا نائب يدعى احمد عمري. ثم أضاف: «زد على هذا أن خلي هنّا يتناقض مع نفسه. غير البارح عيّط ليّ فالتيلفون و كال ليّ ما نديّوش عليه، لأن المغاربة دايرنها بيه». كذبة معيّقة بزّاف! حتى حدّ ما تيّقو، وصحابو كاع خنزرو فيه...

«نحن مثل فيروس»

عند عودتنا للمزرعة تغذينا مع امحمد خداد، أحد أعضاء وفد المفاوضين الصحراويين في مانهاست وهو أيضا عضو بالسكرتاريا الوطنية لجبهة البوليزاريو، ومنسق العلاقات مع المينورسو. الرجل ذكي وظريف ويرد باتزان على حججنا المدافعة عن مشروع الحكم الذاتي، ويعترف بصدر رحب بحصول تحول ديمقراطي معين في المغرب. لكن حوارنا معه كان يُقاطَع باستمرار من طرف شخص آخر. في النهاية سكتنا وتركنا هذا الضيف الثقيل ينغمر في خطبة طويلة فكرتها الأساسية أن نظام محمد السادس أكثر ديكتاتورية من نظام الحسن الثاني. هذا الرجل يدعى خليل سيد محمد، ويشغل منصب «وزير الأراضي المحتلة»، ومهمته هي التنسيق بين قيادة تيندوف و«پوليزاريو الداخل» المزروعين في الأقاليم الصحراوية التابعة للإدارة المغربية. بغينا نعرفو أكثر منّو، لكنه اكتفى بالقول مع ابتسامة ساخرة: «خدمتي هي زعزعة الملكية المغربية». كاع؟! واش كاد عليها بعدا؟ فكّر قليلا قبل أن يرد: «المغرب بلد كبير وقوي. لكننا مثل الڤيروس، بإمكاننا إلحاق ضرر كبير. جرّبتو جميع الأدوية ولكن حتى واحد ما نفع. وما عمّر شي واحد غادي ينفع». بجانبه ابتسم امحمد خداد ابتسامة رجل مُجرَّب شوية، وكأنه يتفق مع ما قاله زميله، ولكنه لا يرى فائدة في الطريقة العدوانية لتعبيره.

على اليمين امحمد خداد، وإلى جانبه خليل سيد محمد، «وزير الأراضي المحتلة».

> «مقر البرلمان الصحراوي يشبه قسما فشي إعدادية فالعروبية جاو وحطّو فيها لبيروات ولكراسي. الطولا ديال السقف من نوع ديماتيت.

«مائة في المائة من أطفال المخيمات يتابعون الدراسة»، تقول وزيرة التربية.

المستوصف الصغير ملآن بالأدوية رغم أنه يفتقر إلى التجهيزات الطبية الحديثة.

فرقة «نجم البوليزاريو» غنت على شرف «ڤيشان» أشهر أغنياتها وعنوانها «التضحيات الجسام».

المستوصف عُمِّد باسم «الشهيد محمد لامين» تكريما لأول طبيب صحراوي توفي عام 1975... في حادثة سير!

كالك «العيالات كيهضرو بحرية وكيعبّرو على المواقف السياسية اللي بغاو».

مركز طبي وتربوي للنساء الصحراويات يتضمن مكتبة وورشات لمحاربة الأمية وأقسام لتعليم اللغات...

«نجم البوليزاريو»

في برنامجنا الآن زيارة لمركز طبي وتربوي للنساء الصحراويات. هذا المركز تأسس قبل ثلاثة عقود، بفضل مساعدة خارجية، وأطلق عليه اسم «27 فبراير» تيمنا بذكرى تأسيس الجمهورية الصحراوية عام 1976. استقبلتنا مديرة المركز بابتسامة مُشكرفة. وقبل أن تبدأ جولتنا في المركز قالت لنا بأن «المغاربة شعب شقيق، على كل حال». حتى حنا ما كاين مشكل، على كل حال...

هنا النساء يقمن بكل شيء. وبكل موضوعية يجب الاعتراف بأنهن يؤدين مهمة جليلة. زرنا عدة حجرات واكتشفنا مكتبة وورشات لمحاربة الأمية وأقساما لتعليم اللغات والخياطة والطبخ وتعليم السياقة والأنترنيت وتكنولوجيا السمعي والبصري... ثم زرنا بعد ذلك مستوصفا صغيرا ملآنا بالأدوية، ورغم أن أجهزته الطبية قديمة، فيبدو أنها موضع اهتمام وعناية. المستوصف عُمِّد باسم «الشهيد محمد لامين»، تكريما لأول طبيب صحراوي توفي عام 1975... في حادثة سير! «كل صحراوي كيموت هنا فالمنفى بعيد على بلادو المحتلة حنا كنعتابروه شهيد»، شرحت لنا مديرة المركز بنبرة وقورة.

في صالة استقبال مجاورة، حضرت لنا بعض الصحراويات الشاي والمشروبات. مناسبة سانحة للتحدث عن زيارتهن لمدينة العيون خلال العام الماضي، في إطار برنامج لتبادل الزيارات العائلية أشرفت عليه المينورسو. يتحدثن عن أخواتهن وبنات خالاتهن اللواتي بقين «هناك» بحنان... وشيء من العجرفة. «تعجّبنا كيفاش كيخافو من كلّشي وكيتفاداو أي هضرة على السياسة. غير كنجبدو الاستفتاء أو الاستقلال كيداو يهضرو بشوية ويتلفتو وراهم... تأكدنا من داكشي اللي كنّا عارفينو على الأجواء الديكتاتورية اللي فرضها الاحتلال المغربي. عَندنا العيالات كيهضرو بحرية وكيعبّرو على مواقفهم السياسية كيفما كانت». «كيفما كانت»، ياك؟ واش ممكن تهضرو مثلا على دعم مشروع الحكم الذاتي المغربي؟ أجابت إحداهن بابتسامة عريضة: «طبعا ولم لا؟ غير و كان حتى وحدة فينا ماكتدعّم هاد المشروع». سبحان الله...

بينما كنا بصدد الانصراف تناهى إلى أسماعنا صوت موسيقى من القاعة المجاورة. «آجي تشوفو الفرقة الموسيقية ديالنا»، قالت لنا مضيفاتنا بفرح. دخلنا لنجد أنفسنا في قاعة حفلات موسيقية متواضعة يتوسطها رباعي ذكوري يتدرب. اسم الفرقة «نجم البوليزاريو» وستغني على شرفنا أشهر أغنياتها وعنوانها «التضحيات الجسام»، وهي خليط من الراي والروك مع نكهة ديال الثمانينات. وإليكم مقطعا من الأغنية: «يا الشعب اللي ضحّيت/ التضحيات الجسام/ راعي الثمرة اللي عطيت/ اتحدات قوى الظلام/ سمعك تركوه ملآن/ بالأمجاد العظام/ كتلوها تضحيات شهداءك فالأرحام». تجاوبت مضيفاتنا بحرارة وحماس مفرطين مع الأغنية. صفقو مزيان ووحدة فيهم دارت كاع شي شطيحة خفيفة.

حان وقت الانصراف. في بادرة حبية اتجاهنا، نحن ممثلو «قوى الظلام»، أهدتنا مديرة المركز شالين صحراويين تقليديين أسودين. قابلناها بالشكر، خاصة وأن واحد العاصفة الرملية بدات كتّحرك شي شوية...

> «كل صحراوي كيموت هنا فالمنفى بعيد على بلادو المحتلة حنا كنعتابروه شهيد... واخّا يموت غير فحادثة سير».

متحف الجيش

بعد ساعة كاملة من الطريق وسط مشاهد تشبه القمر، وصلنا إلى نقطة مهمة من برنامج الرحلة: «متحف الجيش». يتكون هذا المتحف من مجموعة من القاعات المستطيلة مجيّرة بالأبيض ومضاءة بالنيون. محافظ المتحف استقبلنا باللازمة الشهيرة: «ليس لدينا مشكل مع إخواننا المغاربة. مشكلنا مع النظام المغربي المستعمر والتوسعي». ها هي تكالت أسيدي، ودابا نبداو الزيارة...

عند مدخل المتحف أول ما نراه هو لوحة ضخمة تستعيد النشيد الوطني الصحراوي بعنوان «لغة النار والحديد». وتتوالى اللوحات من قاعة لأخرى. هنا لوحة تستلهم تاريخ

عند مدخل «متحف الجيش» أول ما نراه هو لوحة ضخمة تستعيد النشيد الوطني الصحراوي بعنوان «لغة النار والحديد».

في «متحف الجيش» قاعة مخصصة بكاملها لسيرة البطل الوطني الوالي مصطفى السيد مؤسس البوليزاريو.

خريطة تبرز الجدار الأمني الذي يعتبره البوليزاريو «حائط العار».

مدخل «متحف الجيش»، الملآن بما غنمه البوليزاريو خلال الحرب ضد المغرب.

أعلام الدول التي اعترفت بـ الجمهورية الصحراوية.

الشعب الصحراوي «الذي قاوم دائما الغزاة بشراسة» (ومن ضمنهم السلطان المغربي الحسن الأول عام 1882!). هنا نص «اتفاقية مدريد اللصوصية» التي قسمت الصحراء عام 1975 بين المغرب وموريطانيا. ثم هنا قاعة مخصصة لسيرة البطل الوطني وأول الشهداء الوالي مصطفى السيد، مؤسس البوليزاريو الذي سقط في ساحة المعركة عام 1976.

عندما وصلنا إلى القاعة المخصصة لغنائم الجيش الصحراوي، بُدينا نحسّو شوية بالضيقة. ففي ساحة المتحف الرئيسية رأينا بقايا ثلاث طائرات تابعة للقوات الجوية الملكية. وفي إحدى أجزاء طائرة مدمرة نرى بشكل واضح شعار المملكة المغربية. ثم شاهدنا حطام عدد من سيارات الدجيب العسكرية والشاحنات المغربية، وحتى بضع دبابات تابعة للجيش الملكي. لا نستطيع أن نتفادى التفكير في أولئك الجنود الذين كانوا في هذه الآليات العسكرية، والذين وجدوا أنفسهم في معتقلات البوليزاريو لمدة تفوق العشرين عاما... في قاعة مجاورة دولابان ممتلئان بمئات الوثائق والمستندات التي غنمها البوليزاريو في المعارك ضد الجيش المغربي: مراسلات سرية وتوجيهات عسكرية، إحداها ممضية بتوقيع الحسن الثاني بنفسه، ثم المزيد من الوثائق الطبية والاستمارات من كل الأنواع... في دولاب آخر مئات من الشارات والنياشين العسكرية المغربية. وفي الحائط مجموعة صور تم جمعها أثناء غارات البوليزاريو على الثكنات المغربية، تُظهر الجنود المغاربة وهم يبتسمون في أوضاع مختلفة من حياتهم اليومية أثناء فترات الراحة. كلهم تعرضوا إما للقتل أو الأسر أياما قليلة بعد أخذهم لهذه الصور.

غادرنا المتحف وملامحنا تعبر عمّا في صدورنا. محافظ المتحف زاد حكّ على الضّبرة حينما اقترح علينا أن نوقع في السجل الذهبي للمتحف «كيما كيديرو كاع الزوار». لا، شكرا ياسيدي. حتى الحياد الصحفي له حدود... التحق بنا ابراهيم بالكاط كاط. لازالت تنتظرنا ساعة طويلة من الطريق.

«ماد ماكس» في الصحراء

نوجد الآن في بلدة «ربوني»، العاصمة الإدارية للجمهورية الصحراوية. ويبدو أن ربوني مركز لوجيستيكي بالنظر إلى عدد سيارات البيك آب والكاط كاط المصفوفة بالعشرات، وإلى جانبها براميل ضخمة مثقوبة بالأنابيب المطاطية تُستعمل لتزويد الآليات بالوقود. مئات من قطع الغيار المصدية وشي مّاكن الله أعلم ديالاش، غير مليوحة فالأرض. وبين عرّام وعرّام، بقع ديال زيت الموطور فالرملة... وفي قلب هاد الروينة رجال ملثمون بالشالات السوداء ينهمكون في الديمونطاج ديال المّاطر. الديكور ديال «ماد ماكس» وصافي!

لكن نحن هنا للحديث عن حقوق الإنسان، كما ذكّرنا ابراهيم. وبالفعل فنحن هنا من أجل موعد مع مسؤولين في «جمعية أولياء المعتقلين والمختطفين الصحراويين». استقبلنا رجلان يبدو أنهما من المثقفين في مقر كتب على أحد جدرانه بخطوط عريضة: «نطالب بتفكيك حائط العار». ما نعتبره في المغرب حائطا وقائيا لصد الهجمات العسكرية الخارجية، يُعتبر هنا سدا مانعا يفصل بين شعب مقهور وأرضه. حتى المآسي كل واحد منين كيشدّها...

«نحن نتابع يوميا انتهاكات حقوق الإنسان التي يعاني منها إخواننا في الصحراء المحتلة»، قال

> في ساحة المتحف الرئيسية رأينا بقايا ثلاث طائرات تابعة للقوات الجوية الملكية. وفي إحدى أجزاء طائرة مدمرة نرى بشكل واضح شعار المملكة المغربية.

بلدة «ربوني» تذكر بلافيراي في ديكور أشبه بـ «ماد ماكس».

براميل مثقوبة بالأنابيب المطاطية تستعمل لتزويد الآليات بالوقود.

منّو مطعم منّو تيليبوتيك!

جميع أنواع البورطابلات تباع في هذا المحل بربوني.

لنا مسؤولا هذه الجمعية اللذان ينفيان أي صلة بسلطات ربوني. منذ أن تقبّلت الدولة المغربية (نسبيا) الإشهار بأطروحة الاستقلال في الأقاليم الصحراوية، تندلع من حين لآخر مواجهات بين الشباب الصحراوي والشرطة، لكن لايتطور ذلك، إلا نادرا، إلى حد الانفجار. لكن الناس هنا يعتبرون تلك المناوشات «انتفاضات شعبية يغرقها المحتل في الدماء». هكذا كلما هوت هراوات الشرطة في العيون أو السمارة، فمن هذا المقر الصغير تنطلق البيانات الساخنة واللقطات المنطجة في اتجاه قاعات التحرير في العالم أجمع. سألنا أصحاب هذه الجمعية: ماذا عن وضع حقوق الإنسان في المخيمات؟ قابلوا سؤالنا ببرودة دم ثم أجابنا أحدهم: «في السبعينات والثمانينات كانت هناك بعض الاعتقالات التعسفية، لكن قيادة الجبهة اعترفت بأخطائها واعتذرت. وجمعيتنا لم تتوصل بأي شكاية منذ 1990». سؤال آخر: ماذا عن التقرير الشهير الذي أنجزته جمعية «فرانس ليبيرتي»، التي أعلنت فيه توقفها عن مد المخيمات بالمساعدات الإنسانية بعد اكتشافها لاختلاسات قام بها قياديون في البوليزاريو؟ أجابونا بصوت واحد: «كذب ومؤامرة محبوكة من طرف المغرب!»، ثم أضاف أحدهم : «هذا بالإضافة إلى أن الأمر لا يتعلق سوى بمبلغ 6000 أورو...». هيّ شنو؟ كاين الاختلاس ولّا ما كاينش؟

سكان المخيمات.

ماشي شي احتجاز...

إنه السؤال الكبير: هل سكان مخيمات تيندوف «محتجَزون» من طرف البوليزاريو؟ هل صحيح أنهم قد يتعرضون لرصاص الحراس إذا حاولوا مغادرة المخيمات دون إذن مسبق؟ على أي هذا ما تؤكده وسائل الإعلام الرسمية المغربية منذ 33 عاما.

جميع سكان المخيمات الذين التقيناهم أكدوا لنا بأنهم يخرجون من المخيمات بكل حرية. نقدرو كاع ندير و شوية ديال التأويل ونكولو كيكذبو علينا لحقاش خايفين. لكن الحقيقة هي أن المخيمات بالفعل مفتوحة على الصحراء وأن أطرافها غير محروسة تقريبا، كما أننا، والحق يقال، لم نصادف طيلة أربعة أيام كاملة أي دورية مسلحة في هذه المخيمات، علما بأننا لم نكف عن الجولان فيها وبينها طولا وعرضا.

في المقابل، لا وجود لشيء اسمه وسائل النقل العامة تحمل السكان خارج المخيمات في اتجاه تيندوف أو أي وجهة أخرى. كما أنه من المستحيل طبعا لأي أحد أن يغامر في الصحراء مشيا على الأقدام، فذلك يعني ببساطة التعرض لخطر الموت المحقق بسبب العطش والحرارة اللاهبة. المشكل لمن يرغب في السفر هو العثور على سيارة. ما عدا رجال الدولة هناك قلة قليلة من الناس تملك سيارات خاصة. هؤلاء المحظوظين يمكنهم المغادرة، لكنهم في الواقع لا رغبة لهم أصلا في هجرة المخيمات بما أنهم دايرين فيها لاباس. أما بقية السكان فعليهم أن يتوفروا على المال لكراء سيارة. وبما أن غالبيتهم لا يتوفرون على دينار واحد فالفقر هو «الحاجز» الأكبر الذي يمنع سكان المخيمات من الخروج.

لكن بالنسبة لمن وصل إلى تيندوف، على بعد 30 كيلمترا من أقرب مخيم، فعبور الباراجات العسكرية والولوج إلى الجزائر مسألة سهلة، لأنها لا تتطلب سوى بطاقة هوية صحراوية. والعديد من سكان المخيمات يتوفرون عليها حسب ما شاهدناه. ومن استطاع تجاوز تيندوف على متن السيارة فليس من الصعب أن يعبر إلى موريطانيا، فحدودها قريبة جدا ومن السهل اختراقها لغياب رقابة أمنية فعالة.

ليس من المستبعد أيضا أن أولئك الذين يريدون الذهاب إلى المغرب سيجدون صعوبة كبيرة في الخروج من تيندوف بالأساس. فمجتمع المخيمات مجتمع قبلي والجميع على دراية بأسرار الجميع، ولهذا فهم لن يحصلوا على بطائق الهوية إلا بصعوبة كبيرة. لكن، كم عدد هؤلاء الذين يخططون للجوء إلى المغرب؟ في الواقع واخا نحسبو هادوك اللي مشاوكاملين للمغرب منذ بداية النزاع، راهم ماشي بزّاف بالمقارنة مع عدد سكان المخيمات. وهذه أيضا حقيقة يجب وضعها في الحسبان.

وحتى لو افترضنا بأن الراغبين في الخروج لديهم الإمكانيات المادية ويستطيعون شراء تذكرة الطائرة والمرور عبر احدى المطارات الجزائرية، يجب أن يتوفروا أولا على پاسپور ديال الجمهورية الصحراوية، الذي لا تسلمه السلطات سوى لفئة قليلة من المحظوظين المرتبطين بقيادة البوليزاريو. زيد على هاد الشي كلو أن الپاسپور الصحراوي ما كينفع غير فالدول اللي كتعترف بالجمهورية الصحراوية...

الوزير الأول عبد القادر طالب عمر.

ألمانيا واللوكسمبورك

بقي لنا نشاط أخير هذه الليلة هو عبارة عن «عشاء ونقاش» في ضيافة رئيس وزراء الجمهورية الصحراوية... وبحضور نصف أعضاء الحكومة! يبدو أن زيارتنا للمنطقة يُنظر إليها كحدث مهم... بوجه بشوش وملامح رزينة استقبلنا رئيس الوزراء عبد القادر طالب عمر في بناية بئيسة لم تطل كل جدرانها. وكما هي العادة منذ حلولنا بتيندوف فالمائدة كانت عامرة، كل أصناف الطعام، من بينها أطباق متنوعة من اللحوم. «إن الكرم خصلة أساسية من خصال الصحراويين»، شرح لنا مضيفنا ثم أكمل قائلا «عندما نستقبل ضيوفنا نطعمهم كل ما لدينا، حتى ولو بقي أبناؤنا بلا عشاء. لكن في المقابل إذا تعرضنا للتعنيف، فنحن مستعدون للموت من أجل قطرة ماء. للأسف لم يفهم المغاربة أبدا ثقافتنا. يمكنك أن تأخذ ما تريد من الصحراوي، لكن بشرط أن تعامله برفق واحترام».

ونحن في نهاية العشاء، انتقلنا للحديث حول فرضية الاستقلال، فقال أحد الوزراء: «نحن واعون بأن الظرفية الراهنة لا تذهب في اتجاه الكيانات المنعزلة والصغيرة، بل نحو التكتلات الإقليمية. لهذا فحالما نستعيد أرضنا سنعمل بنشاط من أجل وحدة المغرب العربي». لفتنا انتباه المتحدث إلى الهوة الديمغرافية بين المغرب والجزائر، اللذين يبلغ عدد سكانهما 30 مليون لكل بلد، والدولة الصحراوية المفترضة التي لن يفوق عدد سكانها 30 ألف نسمة. «وفين هو المشكل؟ ألمانيا واللوكسمبورگ عضوان كاملان ومتكافئان في مجلس الاتحاد الأوربي، ولّا لا؟». «أيّاه آسيدي لكن مساحة اللوكسمبورگ منسجمة مع عدد سكانها فيما الصحراء في حال استقلالها ستتوفر على مساحة تعادل ما سيتبقى للمغرب. شحال غادي تجي كاع؟ مواطن واحد في كل ثلاث كيلومترات مربّعة؟». الناس ضحكو من نيّتهم. جاتهم هاد الحجة في منتهى السخافة...

> تفاصيل الحكم الذاتي لا تهمهم كثيرا، «لأن العلم المغربي ديما غايبقى فوق ريوسنا وهاد المسألة ما يمكنش لينا نقبلوها».

مخيم العيون عبارة عن حي شاسع من البيوت الطينية الواطئة والقصدير والخيام.

الخميس 12 يونيو
«ندكدگ ليك راسك»

هذا الصباح سنلتقي أخيرا بالسكان. اتجهنا نحو مخيم العيون، وهو عبارة عن حي شاسع من البيوت الطينية الواطئة والقصدير والخيام. ألححنا على ضرورة أن نكون وحيدين في لقاءاتنا مع الناس، بدون ابراهيم، وبدون أصدقائه الثلاثة، الذين لم يفارقونا منذ أول يوم... وقبلوها! غير أن مرات عديدة لاحظنا كاط كاط بيضاء في الأفق تسير ببطء بمجال رؤيتنا. والو ما باغينش يطلقو منا هاد الناس.

دخلنا إلى أعماق المخيم. بيوت من الطين، غسيل منشور على السقوف القصديرية... بؤس ظاهر في كل مكان. لا أحد في الخارج بسبب الشمس الحارقة. صادفنا شابا على ركبتيه بصدد غسل ثيابه في بركة من الماء. خلفه مجموعة من الأطفال لا تتجاوز أعمارهم ست سنوات بثياب رثة. انتبهوا لوجودنا فنادوا علينا بابتهاج بعبارات إسبانية اعتقادا منهم بأننا إسبان «هولا كومو ايسطا». أجبناهم بالعربية فاقتربوا منا فرحين بهذه الفرصة للحديث مع الأجانب.

– «إنتوما دزاير؟»، سألونا ضاحكين.

– «لا، حنا مغاربة»، أجبناهم.

ما إن سمعوا هذه الكلمة حتى تجمدوا في مكانهم. بعد ثوان من الصمت ردد أحدهم مندهشا: «مغاربة؟ نتوما مغاربة؟». بدا واضحا أن هذه المرة الأولى التي يرون فيها «العدو» بلحمه ودمه. أكثرهم شقاوة انتصب فجأة وصاح في وجهنا بحدة مشيرا بأصبعه نحونا «ندكدگ ليك راسك»!! تقدمنا نحوهم بابتسامات عريضة فاتحين أذرعنا للتعبير عن نوايانا السلمية. لكنهم هربوا متفرقين دفعة واحدة. ثوان قليلة وخرج الراشدون من البيوت لاستطلاع الأمر، وبّداو كيخنزرو فينا مزيان، وبالسكات. القضية حماضت. أسرعنا المشي قليلا لكن الأطفال بعد ان استجمعوا شجاعتهم بسبب خروج آبائهم، لاحقونا من بعيد صائحين ومهددين: «ندكدگ ليك راسك»، ثم «پوليزاريو، پوليزاريو!». رمى علينا أحدهم بحراقية انفجرت قربنا وجعلتهم يقفزون من الفرح. الدراري ناشطين، أول مرة كيلعبو لعبة الحرب مع مغاربة ديال بصّح!

توقفنا في مكان آخر يحتضن مباراة في كرة القدم بين فريقين من المراهقين غالبيتهم تلعب بأقدام حافية. اقتربنا من مجموعة من المتفرجين، وعندما عرفوا بأننا مغاربة عبسوا في وجوهنا وبعضهم عطانا بظهرو وزاد. حارس المرمى نسى المباراة وصرخ مهتاجا خلف المرمى «ندكدگ ليك راسك!». غير أن بعضهم بقي مظهرا رغبته في التعرف علينا. أحدهم قال لنا مشيرا إلى حارس المرمى: «ما تدّيوش عليه، بزّاف ديال الدراري هنايا ولاد الشهداء، ماتو ليهم بّاواتهم ولا جدودهم فالحرب. مساكن باقي فيهم الحال». بدات المناقشة. هوما كيهضرو على المعركة من أجل الاستقلال وحنا على مفاوضات السلام التي يعتبرونها بلا فائدة. «ما أخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة، دابا خاصنا نعاودو نهزّو السلاح وصافي». أنكروا لنا بؤس العيش في المخيمات وأصروا على أنهم يعيشون في وضعية مريحة و«ما خاصهم حتى خير».

توقفنا في مكان يحتضن مباراة في كرة القدم بين فريقين من المراهقين غالبيتهم تلعب بأقدام حافية.

بؤس ظاهر في كل مكان. لا أحد في الخارج بسبب الشمس الحارقة.

صورة شاملة لمخيم العيون.

محل لبيع الأحذية والملابس بمخيم العيون.

أطفال انتبهوا لوجودنا فنادوا علينا بابتهاج بعبارات إسبانية اعتقادا منهم بأننا إسبان «هولا كومو ايسطا».

صادفنا شابا على ركبتيه بصدد غسل ثيابه في بركة من الماء.

النظام الاقتصادي.

شيوعية المساعدات الإنسانية

«النظام الاقتصادي السائد هنا في المخيمات مبني على التوزيع المجاني للمواد الأساسية، التي تأتينا من المساعدات الإنسانية الدولية». هذا الكلام لوالي مخيم العيون أكبر مخيمات لحمادة، التي يصل عدد سكانها 44.000 نسمة. تقوم مصالح الولاية بتوزيع ما بين 20 و30 كيلو من الدقيق والزيت والحليب وغيرها من المواد الأساسية على كل مواطن. «عند كل مناسبة استثنائية مثل الزواج أو الختان أو الوفاة مثلا تقوم الحكومة بتقديم مساعدة إضافية»، يضيف الوالي. بالفعل ما قاله الوالي صحيح وقد تحققنا من ذلك عبر شهادات مختلفة لسكان المخيمات... رغم وجود بعض الترددات بخصوص الكميات الممنوحة من شخص لآخر.

غير أن هناك أيضا بوادر لظهور اقتصاد خاص في المخيمات بدأت ملامحه تتضح بعد توقيع اتفاق وقف إطلاق النار مع المغرب عام 1991، ويتمثل أساسا في «صناعة» وتسويق بعض المنتجات التقليدية بالإضافة إلى تربية الماعز وبروز بعض المحلات الحرفية البسيطة، مثل حوانيت المواد الغذائية وكاراجات لإصلاح السيارات ومحلات الحلاقة وبيع الملابس... كل هذه المحلات تتعامل بالدينار الجزائري. «غير أن جميع هذه النشاطات التجارية لا تتعدى 20 في المائة من مجموع النشاط الاقتصادي للمخيمات»، يؤكد لنا الوالي. بعبارة أخرى، سكان المخيمات يعيشون بلا فلوس رغم أن غالبية السكان البالغين يقومون بعمل ما لصالح «الدولة»، قد يكون مهمة إدارية بشكل عام، إلا أن لا أحد منهم يقبض مرتبا لقاء مجهوده. «المسألة عادية جدا فالدولة تخدم المواطنين بالمجان وفي المقابل يقوم المواطنون بنفس الشيء اتجاه الدولة»، شرح لنا شاب صحراوي يشتغل كمحرر في ولاية مخيم الداخلة.

إنه، إذن، نظام قريب من النموذج الشيوعي (رغم أن جميع المسؤولين يرفضون هذا المصطلح) مع فارق أساسي يتمثل في الفقر المدقع الذي يتخبط فيه السكان والاعتماد المطلق على المساعدات الإنسانية الدولية. ماذا سيحدث عندما تنقطع الإعانات الدولية؟ جواب الوالي ها هو «الحكومة الجزائرية، الله يعطيها الخير، كتعوض لينا الفرق ديما»... واخا...

لكن هذا النظام يتضمن الكثير من مناطق الظل الغامضة. آش كيديرو المنتجات الإسبانية في الحوانت ديال المخيمات؟ ماشي هذه مواد ديال المساعدات الإنسانية اللي من المفروض أنها تُوزع فابور؟ وشكون كيشري من الحوانت بما أن الناس ماعندها حتى ريال فجيوبها؟ لقد حصلنا على بعض الأجوبة لكنها تبقى غير مقنعة. مثال، «هادوك اللي كيشريو من عند الحوانت حتى هوما عندهم الحوانت»... كيفاش؟ يعني النخبة كتشري من عند النخبة وكلشي صايّر غير بيناتهم (غريب... وهاد الشي ما عندو علاقة بالاشتراكية والعدالة التي تنادي بها البوليزاريو... هناك تفسير آخر: «بعض سكان المخيمات يتوصلون بمبالغ مالية من أقاربهم في الخارج». واخا مزيان، لكن فين فالخارج؟ فعدا سكان المخيمات، غالبية الصحراويين يعيشون في الصحراء التابعة للإدارة المغربية. ولا نستطيع أن نتخيل أن هؤلاء يبعثون الأموال لأقاربهم في المخيمات عبر وكالات «ويسترن يونيون»، لأن القانون المغربي لا يسمح بذلك على الإطلاق. ربما هناك بعض الصحراويين المقيمين في الجزائر أو بعض الدول الأوربية، لكن أعدادهم قليلة جدا واذا نقصنا منهم 7000 طالب صحراوي بإمكانياتهم المالية المحدودة جدا آش غادي يبقى؟ والو تقريبا...

آش كتدير مواد المساعدات الإنسانية فالپيسري؟

قالوا لنا أيضا إن الصحافة المغربية لا تكف عن الكذب عندما يتعلق الموضوع بقضيتهم. واصلنا الحديث في مقهى صغير تتابع فيه مجموعة من الشباب مباريات بطولة الكأس الأوربية على شاشة متقادمة. كفوا جميعهم عن متابعة الماتش وأهدونا قرعة ماء باردة. سألناهم عن رأيهم في العرض المغربي حول الحكم الذاتي في الصحراء. لكن يبدو أن لا علم واسع لهم بمضمون هذا المشروع. شرحنا لهم بعض بنوده الأساسية وبأنه يتضمن إنشاء برلمان مستقل وحكومة وحتى جهاز شرطة. لكن هذه التفاصيل لا تهمهم كثيرا. علاش؟ إجابة واحد منهم: «لأن العلم المغربي ديما غادي يبقى فوق ريوسنا كيفما كانت التفاصيل، وهاد المسألة ما يمكنش لينا نقبلوها». تدخل شاب آخر أقل اندفاعا: «ونكولو كاع الحكم الذاتي. شكون غادي يضمن لينا أن السلطات المغربية ما غادياش تّكرفص علينا؟ شوفو آش كيوقع فالعيون وسيدي إفني!». فعلا، أجبناهم، المغرب ليس بلدا مثاليا، لكن مع ذلك فقد تغيرت أمور كثيرة منذ 10 سنوات. لم يجيبوا واكتفو بنظرات ساخرة، معبرة عن عدم تصديقهم لأقوالنا. حتى ولو انتهى هذا النزاع ذات يوم فإن الدعاية الرسمية ستترك آثارها في النفوس. في هذه اللحظة ظهر مرافقنا ابراهيم وزملاؤه. والله يلا توحشناهم!

«هدفنا تكوين المقاتلين»

اليوم نتغذى في ضيافة وزيرة التربية الصحراوية، التي أكدت لنا مزهوة «مائة في المائة من أطفال المخيمات وعددهم 28.000 يتابعون الدراسة في 34 مدرسة ابتدائية بإشراف 2700 معلم». أما بالنسبة إلى التعليم الثانوي والجامعة فلا بد من الذهاب إلى الجزائر. وهناك 85 في المائة من بين 7000 طالب، الذين ينحدرون من المخيمات، يعيشون في الداخليات الجزائرية. أما الباقي فهم موزعون على «البلدان الصديقة» خاصة ليبيا وكوبا. منذ أن حللنا بتيندوف طلبنا من المسؤولين أن يمدونا بنماذج من الكتب المدرسية، خاصة تلك المتعلقة بالتاريخ الحديث والتربية المدنية. ناولتنا الوزيرة نسخة من مقرر التاريخ، ولاحظنا أنه يتضمن فصلين،

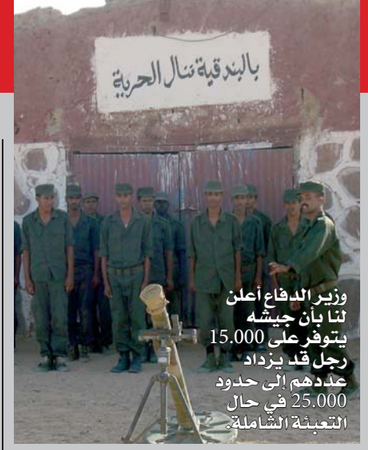

وزير الدفاع أعلن لنا بأن جيشه يتوفر على 15.000 رجل قد يزداد عددهم إلى حدود 25.000 في حال التعبئة الشاملة.

«العدد لا يهم، الشجاعة هي الأساس».

«نكتفي بالاعتناء بأسلحتنا القديمة التي جاءتنا من المعسكر الشرقي سابقا».

شرح لنا وزير الدفاع بأن المغرب كان دائما في نظر الصحراويين «بلد مخيف».

«الأول تحت عنوان «اتفاقية مدريد المشؤومة وميلاد الجمهورية» والثاني عنوانه «استمرارية الكفاح المسلّح ضد الغزاة». والغزاة هوما حنا! أكدت لنا الوزيرة أن هذا المقرر متقادم وأن التلاميذ منذ خمس سنوات يدرسون في كتاب جديد، غير أنها «لم تتمكن من العثور على نسخة منه». وايلي أسعادة الوزيرة؟ ياكما باغا تخبّي علينا شي حاجة؟ تبسّمت وأجابت بهدوء: «على أي سياستنا التربوية واضحة، وهدفها الأول هو تكوين وتأهيل أجيال جديدة من المقاتلين». عادت إلى أذهاننا وقائع هذا الصباح مع أطفال المخيم. إيوا صافي الهدف راهم وصلو ليه...

> في مقرر التاريخ فصل عن «ميلاد الجمهورية» وآخر عن «الكفاح المسلّح ضد الغزاة». والغزاة هوما حنا!

«المغرب بلد مُخيف»

بعد ساعة من الكاط كاط في الصحراء، ها نحن أمام «مدرسة الشهيد الوالي العسكرية». لقد أكد لنا المرافقون بأن وزير الدفاع سيستقبلنا بنفسه ويشرب معنا كأس شاي. وفي انتظاره استقبلنا مدير المدرسة على طريقته قائلا: «سّمعت أن الجيش ديالكم كيتسلّح من لافيراي ديال الصبليون؟». واقيلا هادا هو الضحك ديال العسكر...

تتكون المدرسة العسكرية من ساحة كبيرة محاطة بما يقارب 15 بناية متواضعة، نصفها أقسام والباقي حجرات نوم. هكذا «بالصدفة» تزامن وصولنا مع تأدية تحية العلم. كيفاش زعما تحية العلم فالخمسة وربع؟ 400 تلميذ كلهم شباب يافعون ونحيلون ينكمشون في أزياء عسكرية كبيرة عليهم ويؤدون التحية العسكرية بشكل جماعي. بعد إشارة من المدير تقسموا إلى مجموعات وتوجهوا صوب مدربيهم وهم ينشدون الشعارات الحربية. إذا كان المدير بغا زعما يعطينا فكرة واعرة من خلال هذا المشهد فإنه نجح فقط في انتزاع ابتساماتنا. الجيش الصحراوي، يقول المدير، لا يوزع الرتب على الجنود، إنه يكتفي فقط بتحديد مهامهم، مثلا هادا قايد الجماعة ولا الكتيبة ولا الفيلق...

أخيرا جاء وزير الدفاع. بعد اللازمة الكلاسيكية حول الأخوة بين الشعبين المغربي والصحراوي أعلن لنا بأن جيشه يتوفر على 15.000 رجل قد يزداد عددهم إلى حدود 25.000 في حال التعبئة الشاملة، ثم أضاف: «نعرف أن جيشكم يتوفر على عشرة أضعاف هذا الرقم، لكن العدد لا يهم، الشجاعة هي الأساس». إنهم لا يملكون طائرات ولم يشتروا أسلحة جديدة منذ اتفاق وقف إطلاق النار عام 1991. «نكتفي بالاعتناء بأسلحتنا القديمة التي جاءتنا من المعسكر الشرقي سابقا». واخّا باين راجل مزيان، ماشي ولابدّ نتيّقو السيّد الوزير... بنبرة متأسفة شرح لنا الوزير بأن المغرب كان دائما في نظر الصحراويين «بلد مخيف». «لقد خضتم الحرب ضد الجزائر بعد استقلالها بسبب خلاف على ترسيم الحدود، ثم قاومتم بقوة استقلال موريطانيا قبل أن توجهوا عددا من الانقلابات العسكرية فيها... المغاربة كانت لهم دوما مطامع توسعية وخلال كل تاريخكم لم تكفوا عن الاعتداء على جيرانكم من أجل ضم أراضي إضافية». لفتنا انتباهه إلى المرحلة التاريخية التي كان فيها المغرب في أوج التوسّع، وتعود هذه الفترة إلى عهد المرابطين، هؤلاء المقاتلين الأشداء الذين جاؤوا تحديدا من قلب الصحراء! كبح الوزير ابتسامة صغيرة وشيئا ما مُحرَجة. خلال بضع ثواني ما بقاش متأكد من أن «النزعة التوسعية» شي حاجة خايبة...

القصاير فوق الرمال

الطريق نحو مخيم الداخلة طويلة، وتدوم مسيرتها أكثر من ساعتين وسط الصحراء. لما وصلنا كان الظلام قد أرخى سدوله. نمنا في ضيافة أحد السكان داخل خيمته. اعتقدنا في البداية أنها فرصة سانحة للتواصل بحرية مع صاحب الخيمة وتناول العشاء مع العائلة ربما، علاش لا؟ لكن حماسنا برد لأن الرجل الذي اختاره ابراهيم لاستضافتنا اختار أن يخوي الخيمة من شدة الكرم... ويخليها لينا كاع! كنا في غاية التعب إلى حد أننا لم نحتج. جولة أخيرة في المخيم أتاحت لنا أن نكتشف أن الشباب الصحراوي حتى هو «كيخرج» فالليل. وفي الواقع هم يخرجون على شكل مجموعات حسب الأعمار والجنس، إما درّيات ولا دراري وكيقربقو الناب بيناتهم تحت ضوء القمر. صادفنا مجموعة من البنات يفترشن الرمال وهن يدندنّ بشكل جماعي الأغنية العالمية الشهيرة في مديح الثائر تشي كيڤارا «هاصطا سيمبري كومانضانطي». ما بقات خاصّهم غير شي كيطار وعويفية باش يكمل الديكور.

لقاء.

الكوماندان الغامض

منذ مفاوضات لندن بين المغرب والپوليزاريو في ماي 2000، التي جرت تحت رعاية جيمس بيكر، لم نسمع عن البشير مصطفى السيد. أو بالأحرى كثُرَت الإشاعات بشأنه، فهناك من قال بأنه استقر في جزر الكناري وآخرون يؤكدون بأنه في موريطانيا. فيما قال البعض بأنه اعتزل السياسة وتحول إلى راعي جمال في مكان ما شمال مالي... الواقع أنه لم يغادر تيندوف منذ ماينا هز 8سنوات. أمر غريبٌ، بالنسبة لهذه الشخصية المهمة التي كانت لفترة طويلة بمثابة الرجل الثاني في الپوليزاريو، هو الذي كبد الجيش الملكي أكبر خسائر أثناء قيادته لعمليات الپوليزاريو ضد المغرب... أضف على ذلك أنه التقى الحسن الثاني شخصيا أكثر من مرة في السنوات التي سبقت وقف إطلاق النار... فعلا شخصية ذات عيار ثقيل... ماذا وقع له إذن منذ لقاء لندن عام 2000؟ قليل من الناس يعرفون الحقيقة. فرغم أنه لا يزال مدافعا شرسا عن حق الشعب الصحراوي في تقرير المصير يبدو أن هناك خلافا جوهريا وعميقا بينه وبين الرئيس محمد عبد العزيز. وهذا ما يفسر غيابه عن أي نشاط دبلوماسي مهم منذ ثمان سنوات. فمنذ وصولنا إلى المخيمات طلبنا من الرئاسة الصحراوية لقاءه، لكننا بقينا بلا جواب. وفي آخر يوم من رحلتنا حدثت المعجزة وأبلغنا مكتب الرئيس موافقته على اللقاء المطلوب. ما حدث في الواقع هو أن البشير هو الذي جاء للقائنا مرفوقا بأربعة أشخاص، في جو يشوبه شيء من التوتر. كان مؤدبا وفي غاية اللباقة رغم أنه حاول التهرب من فكرة الحوار. وبعد أن أقنعناه وأخرجنا مسجلتنا لالتقاط كلامه، فوجئنا بأحد مرافقيه يضع مسجلته الخاصة على الطاولة. وهذا ما لم يحدث أبدا مع كل الذين حاورناهم أثناء زيارتنا للمخيمات. وبعد حين طرحنا عليه سؤالا مباشرا «هل أنت الذي اخترت طواعية عدم مغادرة تيندوف منذ 8 سنوات؟». فكان جوابه «نعم ولا في نفس الوقت. نعم لأنني أعتبر بأن ليس لدي شيء مهم أقوله بالنظر إلى التطورات السياسية التي عشناها. لكنني لم أغادر تيندوف أيضا بسبب الأجواء السياسية الثقيلة». كان جوابا غامضا بالفعل. هل يكون البشير مصطفى السيد يخضع لنوع من الإقامة الجبرية داخل المخيمات؟ السؤال لازال مفتوحا. ■■■

البشير مصطفى السيد يلتزم الصمت منذ حوالي 8 سنوات.

حوار حصري

محمد عبد العزيز:

«البوليزاريو لم يقل أبدا إنه يريد حلا عسكريّا للنزاع»

وقائع هذا الحوار دارت في مقر الأمانة العامة للبوليزاريو بمخيم ربوني، العاصمة «الإدارية» للجبهة. تمت دعوتنا إلى قاعة استقبال كبيرة، قوية الإضاءة، تتوسطها عشرات المقاعد. الديكور متواضع الى حدّ التقشف اللهم بعض النباتات وأعلام الجمهورية الصحراوية. وفي الوقت الذي كنا ننتظر فيه لقاء مصغرا قد يكون فيه محمد عبد العزيز مرافقا بمستشار أو اثنين، فوجئنا بأكثر من عشرين شخصا يدخلون معه إلى القاعة! وحرص على تقديمهم لنا واحدا واحدا، مصرا على وجود صحافيين صحراويين بينهم. سألنا محمد عبد العزيز عن أخبار المغرب، الذي لم يره منذ بداية السبعينيات. يريدُ أيضا معرفة عدد سكان الدار البيضاء اليوم وهل تجاوزت المدينة حدودها لتصل حتى المحمدية بسبب النمو العمراني أم لا... انتقل الحديث إلى حصيلة السنة الفلاحية، ثم استقر حول أحوال الطقس... في اللحظة التي أخرجنا فيها دفاترنا ومسجلاتنا لبدء الحوار، قال لنا محمد عبد العزيز بأنه يفضل حوارا جماعيا مفتوحا، يساهم فيه جميع الحاضرين. وبدون أن يفسح لنا المجال للرد أعطى الكلمة بسرعة إلى أحد الصحافيين المرافقين! أراد الصحافي أن يعرف إن كنا سنواجه بعض «المشاكل»، عند عودتنا للمغرب، بسبب زيارتنا لمخيمات البوليزاريو ولقائنا بالرئيس. أجبناه بأنه إذا كنا سنتعرض للمشاكل، اللهم نديروها كبيرة وننجز حوارا مع سيادة الرئيس كما كان مبرمجا. انبرى صحافيان آخران وطرحا علينا نفس الصنف من الأسئلة. ألححنا مرتين إضافيتين على محمد عبد العزيز كي ننجز الحوار. ثم في الأخير أعطانا موافقته. إليكم الحوار...

مرت أربع جولات من مفاوضات «مانهاست»، وليس هناك أي تقدم ملموس بين المغرب والبوليزاريو... هل نحن في طريق مسدود؟

لا، لا أوافق على هذا الكلام. المفاوضات لا تزال متواصلة وكلا الطرفين موافق على مبدإ الاستمرار فيها. في تقديري هذه المفاوضات مسألة جيدة في حد ذاتها ولها أهمية بالغة. لأن نزاعا من هذا النوع وهذا الطول لا يمكن أن يُحل إلاّ على طاولة المفاوضات. على أيّ، نحن في البوليزاريو مقتنعون بأن النزاع لا يمكن حله عسكريا، سواء لصالح المغرب أو لصالح البوليزاريو، وبالتالي فلابد من الوصول إلى حل سياسي في إطار الأمم المتحدة. إذن، مرة أخرى حتى بعد انتهاء الجولة الرابعة وعدم توصلنا إلى نتائج من خلال المفاوضات فالمكسب الإيجابي يبقى هو استمرارها.

هددت أكثر من مرة بالعودة إلى حمل السلاح. هل غيرت موقفك؟

لم نغير موقفنا بالنسبة الى هذه المسألة. وجبهة البوليزاريو لم تقل أبدا إنها تريد حل هذا النزاع بالوسائل العسكرية. ليس هذا هو طموحها. الشعب الصحراوي يفضل طريق السلام، أي نهج المفاوضات. قضية الصحراء الغربية، هي قضية تصفية استعمار، وهذه قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة ومحكمة العدل الدولية. نؤكد اليوم أن الشعب الصحراوي له الحق في حرية تقرير المصير، ومُصر على التشبث بهذا الحق، سالكا طريق السلم، أي المفاوضات واستفتاء تقرير المصير. وإذا كانت هناك محاولة لا قدر الله لفرض الاحتلال بالقوة على الشعب الصحراوي مرة أخرى، حينذاك لا مفر للشعب الصحراوي من استعمال كل الوسائل المشروعة بما فيها السلاح للدفاع عن نفسه.

المبعوث الشخصي للأمين العام للأمم المتحدة بيتير فان فالسوم صرح بأن استقلال الصحراء مطلب «غير واقعي» و مجلس الأمن الدولي مثل الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا واسبانيا ثمنوا مشروع الحكم الذاتي الموسع المغربي واعتبروه «جادا وذا مصداقية». ألا تجدون أنفسكم معزولين دبلوماسيا؟

لا، إطلاقا، وتصريحات بيتر فالسوم للتذكير ليست سوى تعبير عن أفكار شخصية مليئة بالتناقضات. فهو من جهة يقول إن نضال الشعب الصحراوي شرعي، ثم يضيف من جهة أخرى بأن هذا النضال غير واقعي. هذا غير معقول. بسبب هذه الخرجة الإعلامية فقد فالسوم كل مصداقيته كوسيط محايد، وبهذا يكون قد أقصى نفسه بنفسه من دائرة المفاوضات بين البوليزاريو والمغرب.

أما مجلس الأمن الدولي فهو كان دائم التأكيد في تقاريره على ثلاث نقاط أساسية: أولا نزاع الصحراء مسألة تتعلق بتصفية الاستعمار. ثانيا الطرفان المتنازعان هما المغرب والبوليزاريو لا غير. وأخيرا حل النزاع يجب أن يؤدي إلى ضمان حق الشعب الصحراوي في تقرير مصيره. كل تقارير مجلس الأمن تبنتها مجمل الدول الأعضاء بما فيها فرنسا وإسبانيا والولايات المتحدة الأمريكية التي، بالمناسبة، لا تمثل لوحدها المجتمع الدولي. هناك دول أخرى لا تقل أهمية كجنوب إفريقيا وبانما وكوسطاريكا والصين وروسيا، وهذه الدول لها أيضا كلمتها بشأن هذا النزاع. إذن أنا لا أتفق مع أولئك الذين يقولون إن الشعب الصحراوي معزول. بالعكس إنه في وضعية مريحة، بل مريحة جدا.

محمد عبد العزيز الأمين العام لجبهة البوليزاريو.

ألا تعتقد أن المغرب بتقديمه لمقترح الحكم الذاتي قام بخطوة إلى الأمام في اتجاه حل توافقي؟

بعد إعلان المقترح المغربي، دعا مجلس الأمن الدولي إلى تنظيم مفاوضات بلا شروط تضمن في النهاية حق الشعب الصحراوي في تقرير المصير. لكن المقترح المغربي يتناقض مع هذه التوصية الدولية ولا يسير في اتجاهها. إن المغرب بمحاولته فرض التوصل إلى حل ضمن إطار الحكم الذاتي لا يترك لنا أيّ خيار ويحاول فقط فرض شروطه علينا. من جانبنا نحن لا نفرض شيئا ونترك الباب مفتوحا أمام الحكم الذاتي والاندماج والاستقلال، وما على الصحراويين سوى أن يختاروا ما يرونه مناسبا لتطلعاتهم.

لنفترض أن الاستفتاء عُقد يوما ما وأن نتيجته عادت لصالح المغرب، هل ستقبل بالعودة إلى الصحراء والاستقرار فيها؟

هذا السؤال لا يجب طرحه علي أنا، بل على الشعب الصحراوي. إذا تم القبول بمقترحي الحكم الذاتي أو الاندماج فذلك يعني أن غالبية الشعب الصحراوي اختارت ذلك عن قناعة. في حال تحقق هذه الفرضية، وأن الاستفتاء مر في أجواء شفافة وديمقراطية طبعا فجبهة البوليزاريو ستتبع خيار الغالبية الصحراوية.

كيف تنظر إلى الصحراويين الذين اختاروا الالتحاق بالمغرب؟

لا رغبة لي في الاستطراد كثيرا في هذا الموضوع. المملكة المغربية لها إمكانيات مهمة على المستوى المالي والعسكري والبشري والنفسي، مقارنة مع الإمكانيات التي تتوفر عليها جبهة البوليزاريو والشعب الصحراوي بمجمله... المغرب يستعمل إذن إمكانياته كما يحلو له.

بعض الأصوات من داخل البوليزاريو، كتيار خط الشهيد، نددت مؤخرا بغياب الديمقراطية داخل الجبهة. ما رأيك في ذلك؟ لا سيما وأن دستوركم ينص على أن الجبهة هي الإطار الوحيد الذي يحق فيه للشعب الصحراوي التعبير عن آرائه؟

لن تجد الآن في المخيمات ولو شخصا واحدا يقول لك إنه مُنع من التعبير عن رأيه بحرية في أيّ لحظة من اللحظات. أما تيار خط الشهيد الذي أشرتَ إليه فهو غير موجود بكل بساطة. بإمكانك التحقق من ذلك بنفسك في المخيمات وتسأل سكانها. جبهة البوليزاريو منذ إنشائها كانت

•••

الجمعة 14 يونيو

البيّاع العجوز

في الصباح أفلتنا من حفل رسمي آخر (البوليزاريو يحتفل هذه المرة بقدوم دفعة جديدة من المرضات بعد أن أنهين تدريبهن في الجزائر). تسللنا مثل اللصوص وتجولنا وحيدين في شوارع المخيم المهجورة في هذه الساعة المبكرة من الصباح. في مخيم الداخلة كما في مخيم العيون، نجد نفس البيوت الطينية البئيسة ونفس الزرائب الغربية المصنوعة من الطولا والسلوكا ديال الحديد التي يُجمّعون فيها الماعز. اقترب منا رجل مسن بعد أن تناهَت إلى مسمعه لهجتنا التي ذكرته حتما بشيء ما. لما قلنا له بأننا مغاربة ابتسم وكأنه يقول لنا بأننا حيدناها ليه من فمو...

– خاصّكم دابا تمشيو معايا عند السلطة.

> «خاصّكم دابا تمشيو عند السلطة». أو علاش؟ «باش تشربو معاهم كاس ديال أتاي، صافي».

– أوعلاش؟

– هاكاك، هادي هي عادتنا، تشربو شي كاس ديال أتاي معاهم وصافي...

أضحكنا نزوع الشيخ التلقائي للتباع فتبعناه بدافع الفضول ونشوفو آش غادي يطرا كاع. في الطريق حدثنا عن شبابه وكيف أن القبائل الصحراوية في أيام زمان كانت كتخيط الصحراء على ظهور الجمال بلا باكاج تقريبا. ثم تأسف قائلا «دابا ما بقيناش رُحّل ولينا مستقرين لكن حاجاتنا تضاعفت وأصبحت صعبة التحقيق». سألناه إلى ماذا يحتاج سكان المخيم. لكن الشيخ أدرك أنه ربما كثر من الهضرة، خاصة وأننا مغاربة. فعاد إلى «رشده» الحذر: «بفضل الحكومة ديالنا ماخاصّنا حتى خير الحمد الله». وصلنا إلى مقر «السلطة»، وهو عبارة عن بناية متواضعة، مع باب كبير من الحديد مصدّي مزيان. المشكل هو أنه ما كاين حد. بدت على ملامح الشيخ علامات خيبة الأمل. ودعناه فيما يشبه الاعتذار وتسللنا من واحد الدريبة بين منزلين.

كاناڤارو وجيل جيلالة

حسنا فعلنا عندما تبعنا هذا الشيخ البيّاع، لأنه دلّنا في النهاية إلى ما يشبه السوق. بعض الحوانيت ومحلات الحوايج تاع البالي وميكانيسيان وحلاق... ومحل للموسيقى! دخلنا ولم نجد أحدا، لاحظنا بسرعة بوسطيرات ديال كاظم الساهر وإليسا في وضعية إيروتيكية وشبه عارية. على الرفوف تكدست كاسيطات مقرصنة ديال الراي، ثم فوجئنا بأن من بينها موسيقى مغربية. كاسيطات الداودي وعبد الهادي بلخياط الى جوار جيل جيلالة. هل

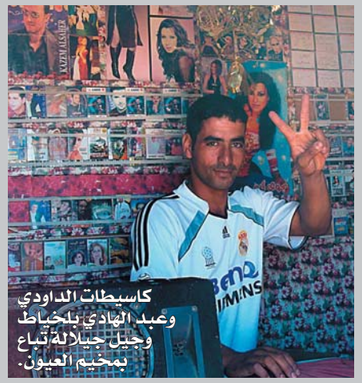
كاسيطات الداودي وعبد الهادي بلخياط وجيل جيلالة تُباع بمخيم العيون.

يعرف البائع بأن هذه الفرقة هي صاحبة «لعيون عينيا»، الأغنية الأسطورية التي تمجد مغربية الصحراء؟ غالبا مافراسوش وبلا ما نكولوها ليه. خلّيه مسكين يتموسق مع جيلالة على خاطرو... ها هو جا نَيت. البائع شاب في العشرينات من العمر يرتدي قَميصا لـ«ريال مدريد» يحمل اسم المدافع الإيطالي الشهير كاناڤارو. بشوش ولطيف وتقريبا مابان على وجهو والو ملي كلنا ليه حنا مغاربة. يبدو أن الرغبة في التعارف والنقاش عندو قوية. قال لنا بأنه لن يذهب للصحراء طالما هي محتلة من طرف المغرب. ولا يريد أن يعرف أي شيء عن مشروع الحكم الذاتي، إما الاستفتاء أو الاستقلال ولاّ والو كاع. وماذا إذا فاز المغرب في الاستفتاء؟ سألناه. في هذه الحالة سيحمل السلاّح ويختفي في الصحراء مثل كل رفاقه الذين فكروا جيدا في

...

ولا تزال حركة شعبية وديمقراطية. والدليل على ذلك مؤتمراتنا التي نحرص على عقدها كل أربع سنوات وتشكل مناسبة لكل الصحراويين للتعبير عن آراءهم بحرية فيما يخص الجبهة ومؤسساتها وبرامجها.... في مؤتمراتنا نقوم بالمراجعة وتقييم أداء الحركة وترتيب البرنامج، وفي ختامها نقوم بانتخاب قيادات جديدة بكل ديمقراطية وحرية، من خلال التصويت السري. وهذا هو السبب الوحيد الذي جعلنا نصمد. يكذب عليكم حد يكوليكم راه بدعم خارجي ولا بقوة أموال، فقد اعتمدنا على الجماهير وشاورناهم وخلينا القرار للشعب بأكمله، نساء ورجال، حتى يشعر كل واحد منهم بأنه مسؤول عن هذا القرار.

دستور الجمهورية الصحراوية يعطيك سلطة شبه مطلقة كرئيس، فأنت من يعين القضاة مثلا، وحتى في حال الاختلاف مع الحكومة فبإمكانك حل البرلمان أيضا...

أولا، الأمين العام للپوليزاريو، مثل الأمانة العامة المكونة من 29 عضوا، التي هي بمثابة القيادة الجماعية للپوليزاريو، يتم انتخابه كل ثلاث أو أربع سنوات في مؤتمر شعبي يساهم فيه 2000 مؤتمِر هم أيضا منتخبون. إذن هؤلاء الذينَ يقولون بأن مؤتمراتنا مجرد تمثيلية مسرحية كذابون.

ثانيا، الأمين العام لا يعين القضاة بل يوقع على قرارات التعيين مثلما يحدث في كثير من بلدان العالم. أما فيما يخص الحكومة فهي مراقبة من طرف البرلمانيين الذين بإمكانهم أن يسقطوها إذا تطلب الأمر ذلك.

فوجئنا بدخول محمد عبد العزيز وبرفقته أكثر من عشرين شخصا.

وهذا ما وقع لنا عام 1999، وهي واقعة لم تحدث أبدا، لا في المغرب ولا في أي دولة أخرى بالمنطقة.

لكن ليصبح المواطن برلمانيا يجب أن يكون قد سبق أن تم تعيينه في منصب يتحمل فيه مسؤولية عمومية وأنت من يعين هؤلاء...

هذه الشروط نصّ عليها دستورنا ليضمن للبرلمانيين مستوى مناسب يؤهلهم لمهامهم.

منذ بداية النزاع دعمتكم الجزائر. أليس لديك انطباع بأنكم قد تكونون ورقة تستعملها الجزائر ضد المغرب في إطار المنافسة على الزعامة الإقليمية؟

سأكون صادقا، أنا لا أعتقد ذلك. حتى في عهد الحماية الإسبانية على الصحراء رفضت الجزائر أن تساهم في اقتسام الصحراء الغربية. لقد اختارت أن تبقى في صف الشرعية الدولية مطالبة بحقنا في تقرير المصير، ومنذ ذلك الحين لم يتغير رأيها في الموضوع. وعندما طُردنا من أرضنا استقبلتنا الجزائر في أرضها، ونحن مدينون لها وسنبقى بهذا الجميل. لكن على عكس ما يروجه البعض، لم تفرض علينا الجزائر أي شيء ولم تطالبنا بأي شيء. وعندما سنسترد أرضنا سترون بأن الجزائر لن يكون لها أي منفذ للمحيط الأطلسي. ولو كانت الجزائر تريد ذلك فعلا لطلبته مباشرة من المغرب، الذي أنا متأكد أنه لن يرفض لها طلبا من هذا النوع. وبالمناسبة المغرب سبق أن واقف على ذلك بسماحه بمرور الغاز الجزائري إلى أوربا عبر أراضيه.

الجنود المغاربة السابقون، الذين تعرضوا لأسر في معتقلاتكم يطالبون باعتذار الپوليزاريو عما عانوه في المخيمات. هل أنتَ مستعد لتقديم هذا الاعتذار؟

لا أرى مبرّرا للقيام بذلك. هؤلاء كانت مهمتهم قتل أبنائنا بطائراتهم ودباباتهم، ومع ذلك عاملناهم مثل إخواننا لأننا مسلمون، ومعاملتنا الحسنة للأسرى هي جزء من قيمنا. لقد ذهبنا حد تمتيعهم ببعض الامتيازات. سولوهم راهم يقولو ليكم، احنا كنا كنباتو جيعانين وهوما كيباتو شبعانين، هوما كيلبسو وحنا كنباتو عريانين، هوما كانو عندهم الفلوس وحنا فقراء. كل من يقول عكس هذا الآن هو موجه من طرف السلطات المغربية.

كيف تعلق، إذن، على تقرير لجمعية «فرانس ليبيرتي» اتهمت فيه الپوليزاريو عام 2003 بانتهاك حقوق الأسرى المغاربة؟

هذا التقرير كان تلبية لطلب من المخزن المغربي بكل بساطة، مثل ذلك التقرير الآخر الذي أنجزه كلود مونيكيه. للأسف هذه الجمعية الفرنسية التي ذكرتَ استغلت طيبوبتنا، ذلك أننا فتحنا لهم جميع أبواب المخيمات وفي النهاية كتبوا تقريرا كله أكاذيب مغرضة.

بعض الأسرى من الجنود المغاربة توفوا في سجونكم وعائلاتهم تطالب باستعادة رفاتهم. هل أنت مستعد لتلبية هذا الطلب؟

جثامين هؤلاء الأسرى مدفونة في مقبرة أُعدّت لهم بشكل خاص. كل القبور محفوظة الهويَة وهي محروسة ليل نهار. إذا كانت السلطات المغربية ترغب في استعادة رفاتهم فنحن لا نرى أي مانع. يكفي أن يتصلوا بالصليب الأحمر الدولي المخول لتسيير وحل هذه الأمور.

في تقريرها الأخير طالبت منظمة «أمنيستي» الدولية بمعاقبة مسؤولي الپوليزاريو المتورطين في انتهاكات حقوق الإنسان خلال سنوات السبعينات والثمانينات والذين لم يتعرضوا لأدنى عقاب. هل سَتجيب على هذا المطلب؟

في الفترات التي أشرتَ إليها كانت هناك تجاوزات. لكننا كنا نخوض حربا شرسة مع عدو يستعمل وسائل وحشية بلغت حد دفن مقاتلينا وهم لا يزالون على قيد الحياة بعد أسْرهم أو حرقهم أحياء... لم نكن على استعداد لهذا النوع من الأمور. لقد بذلنا جهودنا للتكيف مع أجواء تلك الفترات الصعبة من أجل ضمان أمن أبناء شعبنا. نعم، لقد قمنا بعدد من الأخطاء لكن الخطأ كما تعلم هو جزء من الطبيعة البشرية ولا أحد معصوم من الخطإ. في نهاية الثمانينات قررنا طي الصفحة وتحملنا مسؤوليتنا. لقد شكلنا لجان تحقيق وقدمنا اعتذارات للضحايا وعوضنا بعضهم ماليا من أجل إغلاق هذا الملف بشكل نهائي، لأن لدينا إجماعا وطنيا حول هذه المسألة.

والدك يسكن المغرب ومقرب من النظام المَغربي وسبق له أن استنكر مواقفك أمام الملأ. هل ترغب في رؤيته والحديث معه؟

كل واحد حر في اعتناق الأفكار التي يحب.

> عبد العزيز لا يقصّر في استعمال لغة الخشب ورفع صوته، خصوصا عندما يقدّم حجج ضعيفة.

هذه الفرضية... توقف الحديث عند دخول فردين من «الدرك الوطني»، كما هو مكتوب على الدجيب ديالهم. حشروا رؤوسهم في المحل الضيق وحققوا فينا مزيان، لأنهم سمعو شي تنقيقة بأن كاينين شي أجانب فالسيكتور (براهْو عليك آالشيباني، ما مشيتي حتى وصّلتيها). طلبوا منا أوراق الهوية. فقلنا لهم بحذر بأننا من ضيوف السلطات. بعد حديث قصير في الطولكي وولكي عادوا في اتجاهنا مبتسمين، واعتذروا على سوء التفاهم... آشنو كان غادي يوقع كون جينا هنا بلا خبار السلطات؟ ودّعنا كاناڤارو بالعناق أمام الكاسيطات المغربية وقال لنا «الفن لا يعرف الحدود!».

كاسطرو وتشي كيڤارا

عند عودتنا للمزرعة التقينا بأسطورة حية اسمها البشير مصطفى السيد (انظر الإطار ص.31)، أخ الوالي مصطفى السيد والرجل الثاني سابقا في الپوليزاريو. كان كوماندان كبير في عز المواجهات العسكرية ضد المغرب نهاية السبعينات. منذ لقاء لندن عام 2000 بين المغرب والپوليزاريو، اختفى عن الأنظار. وهو الآن لا يشغل سوى منصب ثانوي في الجبهة، رغم أنفه. لكن الرجل لازال يقظا ويدافع عن قناعة وبفكر ثاقب عن ضرورة تقرير المصير. بعد ساعات وقبل مغادرتنا في اتجاه تيندوف، حيث تنتظرنا طائرة العودة، سنلتقي أخيرا محمد عبد العزيز (انظر الحوار).

رجل الپوليزاريو الأول ورئيس الدولة لا يقصّر في استعمال لغة الخشب ورفع صوته، خصوصا عندما يقدّم حجج ضعيفة. إذا كان الوالي مصطفى السيد هو «تشي كيڤارا الصحراء»، فمحمد عبد العزيز هو فيديل كاسطرو. وربما البشير مصطفى السيد قد يكون ساخاروف...

«سي لوماكريب»

منتصف الليل في مطار تيندوف. في الذهاب مثلما في العودة ممنوع التصوير، حتى اللافتة التي تشير إلى وجهة المطار في البلدة ممنوعة علينا. ودعنا ابراهيم ومرافقينا من الپوليزاريو. طائرتنا ستقلع عند الساعة الثانية صباحا. في القاعة قبل الإقلاع عثرنا من جديد على نفس الضابط الجزائري المعجب بالشماخ، الذي بادرنا بنفس النبرة المرحة: «إيوا كيجاوكم المخيمات؟ واش غاتكتبو الحقيقة؟ على بالك غادي تلقاو المشاكل». وعلاش زعما؟ فكر جيدا ثم قال بالفرنسية، هازًا كتفيه : «سي لوماكريب»...

نظام مستبد بقناع ديمقراطي

عدا أنها مبنية على نظام الحزب الواحد (الذي هو جبهة الپوليزاريو)، فإن الجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية لها كل مظاهر الدولة الديمقراطية. لكن قراءة متأنية لدستور الجمهورية، تجعلنا نكتشف نظاما في غاية المركزية يدور في فلك شخص واحد هو الرئيس محمد عبد العزيز، الذي لم يتزحزح عن منصب الأمين العام للپوليزاريو منذ 32 عاما، وهو ما يتيح له أن يحتل منصب رئيس الجمهورية طوال هذه المدة بحكم البند 51 من الدستور الصحراوي.

لنبدأ أولا من الحكومة. فالرئيس هو الذي يعين الوزير الأول، وبناء على اقتراحات هذا الأخير يعين باقي وزراء الحكومة. لكن الحكومة لا تؤدي مهامها سوى بعد أن يمنحها البرلمان الثقة. وهذا البرلمان يسيطر على الحكومة لأنه بإمكانه سحب الثقة عنها وإسقاطها حسب البند 95. كلشي هاد الشي ديمقراطي مائة في المائة... غير أنه إذا البرلمان سحب الثقة من الحكومة فعلى الرئيس أن يقرر في الأمر، خاصة وأن الدستور يمنحه الحق في حل البرلمان (إيوا شي ما درناه. لنتحدث قليلا عن البرلمان أيضا. نعم كل نوابه منتخبون بالتصويت السري من طرف الشعب، حسب البند 79. لكن المراقبة تحدث قبل الانتخابات. ذلك أنه كي تصبح عضوا في البرلمان الصحراوي هناك شرط أساسي يضعه البند 80، مفاده أن على المرشح للبرلمان أن يكون قد سبق له أن تحمل مسؤولية في أجهزة الدولة أو الپوليزاريو أو الجيش. وإذا عرفنا أن الرئيس وحده حسب البند 58 من يقرر تعيين المسؤولين كيبان اللعب مزيان...

أما العدالة، «المستقلة» طبعا إذا صدقنا البند 124، فبلا ما نصدعو راسنا. اليكم ما قل ودل: كل القضاة يعينهم الرئيس واحدا واحدا.

القضية واضحة. نظام الجمهورية الصحراوية السياسي هو نظام مستبد يمنح الرئيس كافة السلط. لكن الصحراويين تيلقاو ليه العذر بسهولة، هادا بالنسبة إليهم نظام ضروري في زمن الحرب، «حتى لا نبدد حيوية الشعب المقاتل». غير هو كاين واحد المشكل: الحرب سالات هادي 17 لعام...